عرض كتاب: الشَّيخ عثمان دان فوديو وحركة التّجديد الإسلاميّ بغربي إفريقيا

د. آدم بمبا
أكاديمي من كوت ديفوار – أكاديمية الدراسات الإسلامية، جامعة مالايا، ماليزيا

للإصلاح والتّجديد مكانةٌ محوريَّةٌ في الإسلام؛ إذ يمثِّل التَّجديدُ المناعة الداخليَّة المسؤولة عن تصفية الجسد الإسلاميِّ وتنقيته كلَّما ران عليه بعض الصَّدأ والأدران، وقد أكَّد الأثر النَّبويُّ هذه الحقيقة الملازمة للإسلام، وبيَّن أنَّ سيرورة الفعل التجديديِّ تتكرَّر على رأس كلِّ قرن.

وقد برْهَنَ التاريخ الإسلاميّ على أنَّ الإصلاح والتجديد عميق الجذور بإفريقيا، ظهر ذلك أوَّلَ ما ظهر في حركة المرابطين التي قامت بمنطقة الملثَّمين ببلاد السُّودان الغربيِّ في القرن الخامس الهجريِّ بقيادة الفقيه عبد الله بن ياسين (ت ٤٥١هـ/١٠٥٩م)، وفي دعوة الشَّيخ الحاج محمد بن سالم سواري (ت ٩٣١هـ/١٥٢٥م)، وفي حركة أسكيا الحاج محمَّد بصونغاي (حكم: ١٤٩٣م – ١٥٢٨م)، وحركة الإمام الشَّيخ ناصر الدين (١٠٨٥هـ/١٦٧٤م) بمنطقة فوتاتور السِّنغال وموريتانيا الحاليَّة، وغيرها من الحركات التصحيحيَّة التجديديَّة المتعدِّدة المتنوِّعة التي استهدفت التّغيير الإيجابيَّ للمجتمع السُّودانيّ على هدي الكتاب والسنّة.

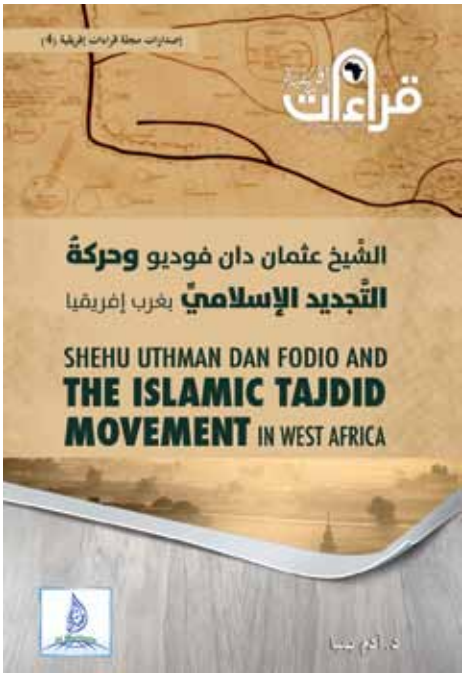

تعريف بالكتاب:

في هذا الإطار؛ تأتي الدِّراسة التي قام بها د. آدم بمبا، ونشرتها مجلة قراءات إفريقيَّة بعنوان: (الشَّيخ عثمان دان فوديو وحركة التَّجديد الإسلامي بغربي إفريقيا)، بوصفها محاولةً لتتبُّع أهمِّ حركةٍ تجديديَّة، في هذا السِّياق، وهي دعوة الشَّيخ دان فوديو (ت ١٢٣٢هـ/١٨١٧م)، وهي حركةٌ بدأها الشَّيخ بنشاطٍ تعليميٍّ تثقيفيٍّ

زهاء عشرين سنة، وكان شـــعارُهُ آنذاك «إحياء السنّة وإخماد البدعة»، وتُوِّج هذا النَّشاط بقيام دولة الخلافة بصكوتو شماليَّ نيجيريا الحاليَّة، وعُدَّت أنجح تجربةٍ تجديديَّةٍ سياسيَّةٍ واجتماعيَّةٍ ودينيَّةٍ في تاريخ إفريقيا جنوب الصَّحراء.

وقد حاولت هذه الدِّراسة الإجابة عن أسئلة جوهريَّة عدَّة: كيف تبَلْـــوَرَت الرُّؤية التجديديَّة عند الشَّـــيخ دان فوديو؟ ومـــا ركائزها النَّظريَّة والفكريَّـــة؟ وما مدى تنزيل الرُّؤيـــة التَّجديديَّة عنده في الواقع المعيش؟ وما مدى تأثير حركته في الدَّعوة والاجتماع ببلاد السُّودان الغربيِّ؟

للإجابة عن الأسئلة المطروحة؛ فقد انتهج فيه الباحث منهجاً تاريخيّاً تحليليّاً، انصبَّ على قراءة آثار الشَّـــيخ دان فوديو المتوفَّرة، من أجل سَـــبْر الرُّؤية التجديديَّة عنده في مجال الفقه، والسِّياسة، والتربية والاجتماع، والدَّعوة.

جـاء الكتـاب فـي (٣٥٥) صفحـة، بخمسـة فصولٍ، تحت كلٍّ منها مباحث متفرِّعة.

فصول الكتاب:

في (الفصـــل الأوَّل) عُنِـــيَ الباحث برصد الظُّـــروف التاريخيَّـــة والاجتماعيَّة التي ظهرت فيها حركة الشَّـــيخ دان فوديو التَّجديديَّة ببلاد السُّودان؛ فاستَعرَضَ الظُّروف السِّياسيَّة والدِّينيَّة بمجتمع هَوســـا والفولاني، والمدَّ الإســـلاميَّ ومراحلَ تطوُّره بممالك هَوْسا التي سبقت ظهور حركة الشَّـــيخ دان فوديو، وكذلك الواقع الدِّينيّ المتمثَّل في طقـــوس «بُـــوري» الأرواحيَّة التي سادت المجتمع آنذاك، واصطرعت مع الإسلام في جميع مراحل وجوده ببلاد هوسا.

بعد هذا الاســـتعراض السُّوسيو-التَّاريخي؛ عُني الباحث في (الفصل الثاني) بتتبُّع الخلفيَّة العلميَّـــة للشَّـــيخ دان فوديو، وذلـــك من خلال اســـتعراض القنوات التي تعلَّم عبرها، والعلماء الذين كان لهم تأثيرٌ مباشـــرٌ في تكوينه العلمي، وفي تشكيل الرُّؤية التَّجديديَّة عنده، وفي صقل شخصيَّته القياديَّة، ومنهم: والده، وخالُهُ الشَّيخ عثمان بِدُورِ، والشَّيخ جبريل بن عمر الأغاديسي.

بعد ذلك؛ جاء (الفصل الثَّالث) لتتبُّع المسار الدَّعويِّ عند الشَّيخ دان فوديو، والأدوات الفاعلة التي وظَّفها في هذا المجال من أجل نشر دعوته، وإحداث التغيير الهادف في مجتمعه، وما أسْفَر عنـــه من تأســـيسٍ لدولة الخلافة الإســـلاميَّة بصكوتو التي كانت تَسْـــتَلْهِم الشَّريعة الإسلاميَّة في جميع أنظمة الحكم الدُّســـتوريَّة والقضائيَّة والإداريَّة.

بعد وضع دولة الخلافة في إطارها التَّاريخيّ المناسب، وتصويرها في واقعها الفعلي، انطلق الباحث في (الفصـــل الرَّابع) للنَّظر في الرَّكائز التـــي قامت عليها هـــذه الدَّولة فـــي العقيدة، والفكـــر، والعبـــادة، والمعامـــلات، والاجتماع، والسِّياســـة، وغيرها من مقوِّمات العمران، وقد تبيَّن من خلال هذا النَّظر أنَّ الشَّـــيخ دان فوديو كان ذا رؤيةٍ تجديديَّةٍ ثاقبةٍ في كلِّ تلك الجوانب المذكورة، قوامها الوسطيَّةُ السَّمحة.

وبما أنَّ الفصل الرَّابـــع في طبيعته نظري؛ فقد جاء (الفصل الخامس) من أجل النَّظر في المنجزات التَّجديديَّة التـــي تحقَّقت في الواقع المعيش في ظلِّ الخلافة الصُّكتيَّة؛ بوصف تلك المنجزات ترجمـــةً فعليَّةً للرُّؤى التَّجديديَّة التي تَبَلْوَرَت عند الشَّـــيخ دان فوديو، وهنا أيضاً تبيَّن أنَّ الشَّـــيخ- بمعيَّة أعوانه بُنـــاة دولة الخلافة- قـــد وُفِّق إلى الكثير من المنجـــزات الحضاريَّة في الفكر والدِّين، وفي السِّياســـة والاجتماع... ففي ظـــلِّ دولة الخلافة الصُّكتيَّة تحقَّقت وحدة «وطنيَّة» اجتماعيَّة وسياســـيَّة لم تتكرَّر بعدُ في تاريخ القارَّة، كمـــا تحقَّق في ظلِّها أمنٌ تامٌّ على الأنفـــس والممتلكات، وعدالـــةٌ اجتماعيَّةٌ ذات

نسبةٍ عالية، وتحقَّقت في ظلِّها رفاهة اقتصاديَّة شـاملة واضحة المعالم، وشـهدت المجالات العمرانيَّـة الحضاريَّة كافَّة تطوُّراً ملاحظاً على الرُّغم من القِصَر النِّسـبيِّ لعُمْر دولة الخلافة التـي لم تعـش إلاَّ مائـة عام فحسـب، وكان سـقوطها إثر الغزو الإمبرياليِّ البريطانيِّ عام (١٣٢١هـ/١٩٠٣م).

ولعلَّ ما يميّز شـخصيَّة الشَّـيخ دان فوديو التجديديَّـة نجاحه في «صُنْـع» الرِّجال الدُّعاة المصلحين، ذكوراً وإناثاً، حاملي الرُّؤية وتطبيقه فـي الواقع، وقد تجلَّى ذلك حتى قبل قيام دولة الخلافـة، حين كان الشَّـيخ في طـور الدَّعوة والتربية والجهاد؛ حيث وصـل طلبَته ومريدوه وقُوَّاده، وحَمَلة ألْويَته التي كان يعقدها لهم، إلى مواضع شاسـعة عن مركز الدَّعـوة. كما تجلَّى هذا النَّجاح في صُنع الرِّجـال، بظهور حركات تصحيحيَّة عدَّة منبثقة عن الخلافة الصُّكتيَّة، أو بالأحرى؛ فإنَّ جميع الحركات التّصحيحيَّة ببلاد السُّودان الغربيِّ، في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، هي منبثقةٌ عـن الحركة التجديديَّة الصُّكتيَّـة، منها: إمارة إلورينْ، وإمارة كونتاغورا بجنوبيِّ نيجيريـا الحالية، والإمـارة الإماميَّة «دينا» بعاصمتها «حمد الله» (١٢٣٣هـ/١٨١٨م)، وحركـة الشَّـيخ عمر بـن سـعيد الفوتي (ت ١٢٨٠هـ/١٨٦٤م)، وحركة الشَّيخ محمد الأمين صوننكي (ت ١٣٠٦هـ/١٨٨٨م)، وحركة الشَّـيخ أحمد ديمـي (ت ١٣١٢هـ/١٨٩٤م)، وغيرها من الحركات الدّعويَّـة والجهاديَّة التصحيحيَّة الناجحة بمنطقة سنيغامْبيا بغربيِّ إفريقيا.

هـذا، وقد حـدَّد الباحث فـي (الخاتمة) جملةً من النتائج والحقائق المهمَّة عن التجديد المتحقَّق ببلاد السُّودان؛ نتيجةً لحركة الشَّيخ دان فوديو الإصلاحيَّة وتأسيس دولة الخلافة، وهي نتائج عدَّها الباحث إجابةً مقنعةً عن الأسـئلة الثَّلاثة المطروحة عن: ركائز الرُّؤية التجديديَّة عنـد الشَّـيخ دان فوديو، ومـدى تحقيقها في الواقع، وتأثيرها في بلاد السُّودان الغربي.

من تلك النّتائج:

أوَّلاً: أنَّ انتماء الشَّيخ دان فوديو إلى مجموعة الفولاني المسلمة، وإلى طبقة طُروذْبيهْ العلميَّة الملقَّبـة بـ«أهل الكُتُب»، كان له الأثر المباشـر في تشكيل الرُّؤية التجديديَّة في فكره وحركته، يُضـاف إلى ذلك وجود ثقافة علميَّة إسـلاميَّة عريقة ببلاد السُّودان الغربي، ومَوْروث إصلاحيٍّ تجديديٍّ متواصل في تاريخ المنطقة.. كلُّ ذلك وفَّـر أرضيَّةً خصبـةً لنماء الفعـل التجديديِّ عند الشَّـيخ دان فوديو وغيـره من المصلحين المجدِّدين في التاريخ الإفريقي.

ثانيـاً: أنَّ دعوة الشَّـيخ دان فوديو وحركته التجديديَّـة قد انطلقت من رؤيةٍ دعويَّة واضحة مرسومة بإحكام، بدأها بمشروعٍ تعليميٍّ تثقيفيٍّ مبسَّط في طُرُقه ومضمونه، مستهدفاً الشَّريحة العامَّة من المجتمع فـي القرى والأرياف، وفي المـدن، موظِّفاً في ذلك الوسـائل العادية من خطابةٍ ووَعظ، وأشعارٍ شـعبيَّة، وكتابة رسائل مختصرة في شـتَّى الموضوعات ذات العلاقة باهتمامات الأفراد والمجموعات اليوميَّة.

ثالثـاً: أنَّ الشَّـيخ قد عُني- أيَّمـا عنايةٍ- بتربيـة القادة والدُّعاة الذيـن عُرِفوا فيما بعد بـ«الجماعة»، رجالاً ونساءً، وكان من وسائله في هذه التَّربية والإعداد: تأليف رسـائل مخصَّصة لهذه الفئة من الطَّلبة، كانت بأيديهم بمثابة أدلَّة عمليَّة في تربية نفوسهم روحيّاً ومعرفيّاً ومهاريّاً؛ من أجل القيام بمهمَّة الدَّعوة والتَّبليغ والتَّغيير.

رابعاً: أنَّ الشَّيخ دان فوديو قد ساهم إسهاماً عميقاً في إحداث تغييـرٍ ملحوظٍ في مجالاتٍ عدَّة: دينيَّة، واجتماعيَّة، وسياسيَّة، واقتصاديَّة،

ففي المجـــال الدِّينيِّ- مثلاً- وُفِّق الشَّـــيخُ في إعادة المســـلمين إلى تصحيح عقائدهم؛ بجعل القـــرآن الكريم المصدَرَ الأوَّل في أخذ العقائد، ونبذ البِدَع، والتمسُّك بالسُّنن النّبويَّة.

خامســـاً: أنَّ الخلافة الإسلاميَّة بتأسيسها على الشَّـــريعة الإســـلاميَّة قد حقَّقت منجزاتٍ سياســـيَّةٍ واقتصاديَّةٍ واجتماعيَّـــةٍ كثيرة، منها: تحقيق وحدةٍ وطنيَّة، وتنوُّعٍ إثنيٍّ ودينيٍّ متناغم، وإحـــداث حالـــةٍ عاليةٍ مـــن الأمـــن والعدالة الاجتماعيَّة، ونمـــاءٍ اقتصادي، والارتقاء بالأداء الإداريِّ والسِّياســـيِّ للحـــكَّام، تُحتـــرم بموجبه الحريَّات والحقوق.

سادساً: أنَّ المرأة قد حظيت بمكانةٍ محوريَّة في الخلافة الصُّكتيَّة؛ مشـــارِكَةً في بنائها، وفي إدارة شؤونها، وفي الارتقاء بالجوانب الاجتماعيَّة بالمجتمع الهوساويِّ الفولاني.

ســـابعاً: أنَّ أكبر منجزات الفعل التجديديِّ الفـــوديِّ نجاحُـــهُ في استنســـاخ نفســـه، وفي التَّرشـــيح لقيام حـــركاتٍ إصلاحيَّة في مناطق شـــتَّى من بلاد السُّـــودان، مثل حركات الجهاد بمنطقة سنيغامبيا، وبمنطقة فولتا العليا، وبلاد يوربا، وهي جميعاً نتاجٌ مباشـــرٌ لحركة التجديد التي جاء بها الشَّيخ عثمان دان فوديو.

بالإجمـــال؛ يؤكِّد الباحث أنَّـــه «من الصَّعب رصد تأثير الحركة التَّجديديَّة الفوديَّة بأبعادها في الزَّمان والمكان؛ لذلك كان التَّركيز- في هذه الدِّراســـة- حول تلمُّس تأثيراتهـــا الماضية؛ إذْ إنَّ تتبُّع تأثيرهـــا في المجتمع الإفريقيِّ الرَّاهن يحتاج إلى دراســـاتٍ متخصِّصـــة في مجالاتٍ متعدِّدة».

بعـــد ذلك أشـــار الباحث إلـــى أنَّ محاولة الكثيـــر من ولايـــات نيجيريا تطبيق الشَّـــريعة الإسلاميَّة منذ ١٩٩٩م، في مجال قانون الأحوال الشَّخصيَّة والقانون الجنائي، هي محاولةٌ للعودة إلى التَّجربـــة الصُّكتيَّة النَّاجحة بكلِّ المقاييس، وباعتراف الإمبرياليِّ البريطانيِّ الذي اتَّكأ على هذه التَّجربة أيَّام الاحتلال الكولونيالي.

رؤية الباحث:

لعلَّ ما يمكن استخلاصُه من رؤيةٍ في هذا الكتاب؛ هو ما أشـــار إليه الباحث في الفقرة الأخيرة منـــه بقوله: «وما أحـــوَجَ مجتمعاتنا اليوم إلى النَّظر في هـــذا النموذج الصُّكتي، واســـتلهامه في حـــلِّ الكثير من مشـــكلاتنا الرَّاهنة، خاصَّة في المجال الدِّينيّ السِّياسيّ الذي ما زلنا في مســـافاتٍ بعيـــدةٍ عمَّا بلَغَهُ الشَّيخ دانْ فوديو وأعوانُه في تلك المجالات، رؤيةً وتطبيقاً».

كمـــا رَجَا أن يُجلّيّ هـــذا الكتاب المتواضع للجيل المســـلم المعاصر- الإفريقيِّ تحديداً- طرفاً من حياة هذا الدَّاعية المجدِّد؛ بما جسَّدَهُ من فَهْمٍ وَسَـــطيٍّ عميقٍ للإســـلام: في مبادئه، وتعاليمه، وعباداته، وشـــرائعه... وما كان عليه من تسامُحٍ واسعٍ رحب، وما تحقَّق على يد الشَّيخ وأعوانه من نجاحاتٍ حضاريَّـــة مقارنةً بالواقع الإفريقيّ الحديـــث؛ على الرُّغم من وفرة موارد القـــارة، وإمكاناتها البشـــريَّة والطَّبيعيَّة، ووفرة الوسائل والأدوات الحديثة.

أخيراً:

تجدر الإشـــارة إلـــى أنَّ الباحـــث قد أورد في (ملحق الكتاب) مســـارد لآثار الشَّـــيخ دان فوديو، وقد بلغـــت (١١٥) مؤلَّفـــاً، المخطوط منها والمطبوع، وأكَّد أنَّ دراســـته لم يتسنَّ لها الاطِّلاع على جميع تلك المصادر الأوَّليَّة، وبناءً عليه؛ رَجَا الباحث أن تُعنى البحوث المستقبليَّة حول الخلافة الصُّكتيَّـــة، وغيرها من الحركات التصحيحيَّة ببـــلاد السُّـــودان الغربي، بتحليل مضامين تلك المصادر الأوَّليَّة ■